

HABIBIA ISLAMICUS

(The International Journal of Arabic & Islamic Research)
(Bi-Annual) Trilingual (Arabic, English, Urdu)

ISSN:2664-4916 (P) 2664-4924 (E)

Home Page: <http://habibiaislamicus.com>

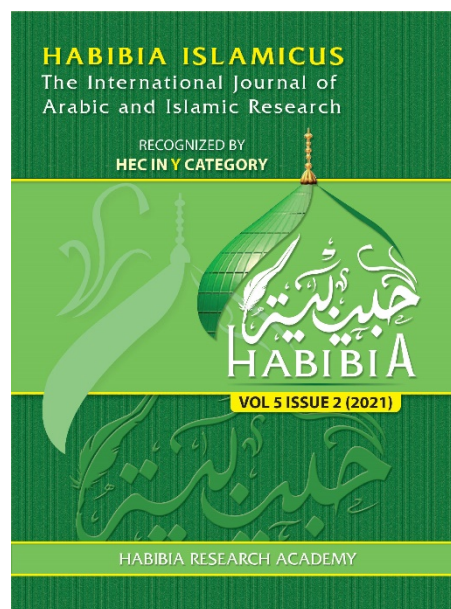
Approved by HEC in Y Category

Indexing: IRI (AIOU), Australian Islamic Library,
ARI, ISI, SIS, Euro pub.

PUBLISHER HABIBIA RESEARCH ACADEMY
Project of **JAMIA HABIBIA INTERNATIONAL**,
Reg. No: KAR No. 2287 Societies Registration Act
XXI of 1860 Govt. of Sindh, Pakistan.

Website: www.habibia.edu.pk,

This work is licensed under a [Creative Commons Attribution 4.0 International License](https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).



TOPIC:

IBN AL-SAAFI AND THE CHARACTERISTICS OF HIS POETRY

ابن الساعاتي حياته وشعره

AUTHORS:

1. Dr. Muhammad Nasir Mustafa, Lecturer Department of Islamic & Arabic Studies, University of Sargodha, Sargodha. Email: nasir.mustafa@uos.edu.pk Orcid ID: <http://orcid.org/0000-0002-4649-1170>

How to Cite: Mustafa, M. N. (2021) ARABIC 12 IBN AL-SAAFI AND THE CHARACTERISTICS OF HIS POETRY: ابن الساعاتي حياته وشعره. *Habibia Islamicus (The International Journal of Arabic and Islamic Research)*, 5(2), 141-150 <https://doi.org/10.47720/hi.2021.0502a12> *Habibia Islamicus (The International Journal of Arabic and Islamic Research)* 5 (2):141-150
URL: <http://habibiaislamicus.com/index.php/hirj/article/view/232>

Vol. 5, No.2 || April – June 2021 || P. 141-150

Published online: 2021-06-29

QR. Code



IBN AL-SAAATI AND THE CHARACTERISTICS OF HIS POETRY

ابن الساعاتي حياته وشعره

Muhammad Nasir Mustafa

ABSTRACT

Ibn Al-Saati lived in the second half of the sixth century A.H. He was born in 553 A.H and died in 604 A.H. This era witnessed important political events; like the fall of Fatimid state in Egypt and the establishment of the Ayyubid state on its ruins. It also witnessed the Crusades and the accompanying Arab victories and conquest, led by the conquest of Jerusalem in the year 583 A.H by Salah ul Din Al-Ayyubi. Ibn Al-Saati was a prominent poet of that era. The present article will highlight the main characteristics of his poetry. It is consisted on abstract, time period of the poet, biography of the poet, the characteristics of his poetry, conclusion of the discussion and bibliography. May Allah help us in each and every walk of life. Ameen.

KEYWORDS: Ibn Al-Saati, Fatimid, Ayyubid state, Crusades, Jurusalem, conquest.

عاش ابن الساعاتي في النصف الثاني من القرن السادس الهجري ، فقد ولد عام 553 هـ وتوفي عام 604 هـ . وقد شهد هذا العصر احداثاً سياسية مهمة ، حيث شهد سقوط الدولة الفاطمية في مصر وقيام الدولة الايوبية على انقاضها ، وشهد كذلك الحروب الصليبية وما رافقها من انتصارات وفتوحات عربية كان على رأسها فتح مدينة القدس سنة 583 هـ على يد صلاح الدين الأيوبي. كان ابن الساعاتي من أهم شعراء ذلك الوقت. وهذا البحث ينوّز أهم خصائص شعره. يعتمد هذا البحث على المقدمة وعصر الشاعر و سيرة الشاعر و خصائص شعره وخاتمة البحث والهامش. نسأل الله أن يعطينا النجاح في جميع اتجاهات حياتنا. آمين.

اولاً : . عصر الشاعر: وفي تلك الفترة كان الضعف يمزق اشلاء الدولتين العباسية في بغداد والفاطمية في مصر، وكان الخلاف بين هاتين الدولتين على اشدّه مما هيا الفرصة امام العدو الصليبي من أن يحط قدمه في الأرض العربية ، حيث استطاع أن يكون له إمارتين في بيت المقدس وأنطاكية، وبدأ يستعمل أساليب القتل والتدمير كما هو حال الغزاة في كل عصر ومصر، ولم تستطع قوى الفاطميين الثبات أمامهم على الرغم من القوة العظيمة التي جابههم بها الأفضل بن بدر الجمالي سنة 492 هـ⁽¹⁾. وفي خضم هذه الأحداث، وفي قمة الصراع بين الشرق والغرب ظهرت على مسرح الأحداث شخصية الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي الذي استطاع في زمن قصير أن ييسط سيطرته على مساحة واسعة من الأرض العربية تمثلت بمصر والشام والجزيرة. وبدأ باستنفار عزائم الناس وحشهم على جهاد العدو الصليبي، فبدأ بترتيب جيشه، وتنظيم جنده، وبث فيهم روح الحماسة والجرأة وحب الشهادة استعداداً لليوم الفاصل ومعركة المصير فخاض ضد الصليبيين معارك كثيرة تحقّق له فيها النصر وكان من أبرزها معركة حطين، حيث قاتل فيها المسلمون قتالاً عنيفاً تجاوزت أمامه معاقل الصليبيين الذين لم يصمدوا طويلاً فاستكانوا إلى طلب الأمان وسلموا. وكان نزول صلاح الدين على القدس يوم الأحد الخامس عشر من شهر رجب عام 583 هـ، وسلم الصليبيون المدينة في يوم الجمعة الموافق السابع والعشرين من رجب ، وليلته كانت ليلة الأسراء والمعراج المنصوص

عليها في القرآن الكريم^(٢) . وقد ظل صلاح الدين الأيوبي سائراً على هذا النهج في العناية بأمور جيشه والجهاد ضد الأعداء الصليبيين إلى أن وافته المنية سنة 589 هـ . فتسرب الضعف إلى دولته بعد أن قسم ملكه الواسع بين ابنائه. ونتيجة لهذه الحالة السياسية المضطربة التي تمثلت بكثرة الحروب فقد اضطربت الحالة الاقتصادية والاجتماعية، إذ ظهرت الفروق الشاسعة بين الطبقات الاجتماعية، فلم يكن توزيع الثروة عادلاً بين طبقات المجتمع والذي انقسم إلى فئتين متباينتين هما فئة الأمراء وأصحاب الأقطاع والتجار والأثرياء ورجالات الدولة. وفئة عامة الشعب التي غلب عليها الفقر والفاقة والجوع، فلا تملك شيئاً لأن الفئة الأولى أصبحت هي المهيمنة على كل شيء فصار عامة الشعب يعيشون حياة ضنكاً شاقة مضنية، فلجأوا إلى العمل كفلاحين وعمال يتقاضون أزهد الأجور . وكان المجتمع في ذلك العصر متكوناً من خليط أمشاج من عناصر وجنسيات مختلفة في طبائعها وعاداتها وأخلاقها وتراثها الديني والفكري والأدبي والفني ، من العرب والترك والفرس والروم والأرمن ومن سلالات أوربية استوطنت وتأقلمت .^(٣) ولا شك إن اختلاط هذه العناصر جميعاً أنبت أشياء كثيرة جديدة في نظم المجتمع وفي العادات والتقاليد وفي الادب والفكر والدين.^(٤) فقد اضطربت عقائد الناس بسبب التمازج بين العقائد والديانات للعناصر المختلفة والتي كانت تضم العربي المسلم والمسيحي والتركى والكردى المسلمين، ونصارى ويهود كما كان بينهم أجناس أخرى من الفرنج وغيرهم، وكانت تلك العقائد تختلف بين سماوية ووثنية أو طبيعية. كما أثر ذلك الامتزاج في العقيدة الإسلامية فأحدثت مجموعة من الاتجاهات والظواهر الغربية عن الروح العربية والإسلامية^(٥) وقد أدى اضطراب الحالة الاجتماعية والاقتصادية وكثرة الحروب آنذاك إلى تفكك المجتمع وتدهوره ، واضطراب العيش ، وانتشار الفقر والأوبئة والأمراض إلى جانب إنتشار الأمراض الاجتماعية كالإفراط في شرب الخمر والشذوذ . وعلى الرغم من أن هذا العصر شهد هذه المرحلة العصبية إلا أن موارد العلم والثقافة ومناهلهما فيه لم ينضب معينهما ولم ينقطع الناس عن ورودهما، إذ ازدهرت الحياة العلمية والأدبية في هذا العصر ازدهاراً كبيراً، وكان السبب الرئيس وراء ازدهارهما آنذاك هو حب الملوك الأيوبيين للعلم والعلماء وتشجيعهم إياهم وتسابقهم إلى تقريبهم إليهم، وسعيهم إلى العلم لينهلوا من فيضه كل حسب ميوله ورغباته، فهذا صلاح الدين الأيوبي قد حفلت مجالسه بأهل العلم الذين يتذاكرون ويتحاورون في أصناف العلوم وهو يستمع إليهم ويشاركهم في أبحاثهم، حتى صار لكثرة مخالطته للعلماء وأخذة عنهم كأنه من كبار الفقهاء يضرب في كل علم من علوم الدين بالسهم الصائب، وكان يحفظ القرآن الكريم، والتنبيه في فقه الشافعي، وديوان الحماسة لأبي تمام^(٦). أما العزيز عثمان الذي خلف أباه صلاح الدين في السلطة فقد قال عنه ابن خلكان أنه ((سمع بالأسكندرية الحديث من الحافظ السلفي والفقهاء أبي طاهر بن عوف الزهري، وسمع بمصر من العلامة أبي محمد بن بري النحوي وغيرهم))^(٧) ومن مظاهر رقي الحركة الثقافية والفكرية في ذلك العصر انتشار المدارس بكثرة، فقد توسع الحكام في انشائها وبذلوا كل ما في وسعهم؛ لتوفير الأساتذة من أقطار العالم الإسلامي شرقاً وغرباً . وقد كان السلطان صلاح الدين الأيوبي من أكثر الملوك اهتماماً ببناء المدارس والأنفاق عليها. وقد عني الأيوبيون عناية كبيرة بالكتب والمكتبات فكانت كل مدرسة تحتوي على مكتبة ضخمة يرجع إليها المدرسون والطلاب ويعتمدون عليها في التحصيل والاستزادة، ولم تكن

قاصرة على المدارس حسب بل وجدت بالجوامع مكتبات كبيرة، إلى جانب المكتبات الخاصة. ويكفي هنا أن نذكر أن مكتبة القاضي الفاضل كانت تضم مائة ألف كتاب⁽⁸⁾ ولم تكن الحياة الأدبية بمعزل عن باقي العلوم، فقد شملت عناية ملوك بني أيوب وسلاطينهم، فكانوا محبين للأدب والأدباء، يجالسونهم ويقربونهم منهم، وأن من هؤلاء الملوك من كان صاحب ذوق في الأدب، أو كان له في نظم الشعر حظ. فقد كان صلاح الدين الأيوبي يستحسن الأشعار الجيدة، ويردها في مجالسه. وهكذا كان ملوك بني أيوب يحبون الشعر والشعراء، ويجدون في حديث الأدب والشعر راحتهم ومتنفسهم بعد أن يلفحهم هجير الحرب فيجدون في مجالسهم وسميرهم ومنتداهم ما ينسيهم نار الحرب وويلاتها. فازدهرت فنون الأدب وموضوعاته في ذلك العصر ازدهاراً كبيراً، كما ظهرت موضوعات أدبية جديدة تلائم روح العصر الذي كانت تحيّم عليه الحروب الصليبية، إذ كان لهذه الحروب أثر كبير في ظهور ألوان متعددة من الأدب ((ترجع إلى أصل واحد هو الجهاد والدعوة لحماية الإسلام والمسلمين، ومن هذه الألوان، أدب القتال، والحض عليه ووصف الجيوش وآلات الحرب، والحصون، وإبراز فضائل الشجاعة والنخوة والبطولة والتفاني، واشترك في هذا الشعراء والكتاب جميعاً))⁽⁹⁾. كما كان لها أثر كبير في انتشار المديح النبوي انتشاراً واسعاً بين الشعراء، فلا ترى ديواناً شعرياً يخلو من قصائد المديح النبوي، حتى أن بعض الشعراء قد خصص ديواناً شعرياً لها أما المذاهب والفنون الشعرية فقد تنوعت في شعر هذا العصر، وسلك الشعراء فيه ثلاثة اتجاهات، فمنهم من انتهج الاتجاه التقليدي منهجاً شعرياً، فكانوا يصطفون أساليبه ومعانيه، ومنهم من التزم مذهب البديعيين وأصحاب الصنعة، وقد كانوا الكثرة الغالبة، فكان هذا النوع أكثر شيوعاً من سابقه، ومنهم من جمع بين المنهجين، فأخذوا من القديم معانيه، ومن الجديد أساليبه⁽¹⁰⁾

ثانياً : سيرته : اسمه : هو علي بن محمد بن رستم بن هردوز الخراساني الدمشقي، وتكاد جميع المصادر تجمع على تسميته هذه⁽¹¹⁾. ولم يخرج عن ذلك إلا ابن خلكان إذ ذكر أن اسمه علي بن رستم بن هردوز⁽¹²⁾. كنيته في جميع الروايات أبو الحسن. ولقبه بماء الدين وقد أشتهر بابن الساعاتي نسبة إلى مهنة والده.

نسبه تجمع أغلب المصادر التي ترجمت لابن الساعاتي على أنه خراساني الأصل، كان أبوه من خراسان وانتقل إلى الشام وأقام بدمشق⁽¹³⁾. وقد كان عارفاً بعلم النجوم وصنع الساعات. وهو الذي عمل الساعات عند باب الجامع بدمشق، وكان ذلك في أيام الملك نور الدين بن زنكي الذي أنعم عليه إنعاماً وافراً، وقد لازم مهنته هذه إلى أن توفي⁽¹⁴⁾. ومن هنا جاء لقبه الساعاتي.

مولده ووفاته: ولد ابن الساعاتي في دمشق سنة (553هـ)، وتوفي في القاهرة سنة (604هـ)، وتكاد تتفق جميع المصادر على هذين التاريخين⁽¹⁵⁾

وتأخذ هذه القضية تحديداً أكثر دقة عند ابن خلكان في وفاته حيث يقول عن الشاعر: ((أخبرني ولده بالقاهرة المحروسة أن أباه توفي يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر رمضان سنة أربع وستمئة بالقاهرة، ودفن بسفح المقطم، وعمره إحدى وخمسون سنة وستة أشهر وإثنا عشر يوماً.))⁽¹⁶⁾ ولكنه يعود ليورد رواية أخرى تثبت غير ذلك في تاريخ ولادته، إذ يقول

((ورأيت بخط بعض المشايخ وقد وافق في تاريخ الوفاة لكنه قال: عاش ثمانيا وأربعين سنة وسبعة أشهر واثنى عشر يوماً، وأنه ولد بدمشق، رحمه الله تعالى، والله اعلم بالصواب.))⁽¹⁷⁾. ولعله قصد في قوله (بعض المشايخ) المنذري صاحب كتاب التكملة لوفيات النقلة، فهو الوحيد الذي اورد مثل هذه الرواية إذ يقول في معرض كلامه عن الشاعر: ((وفي الثالث والعشرين من شهر رمضان توفي الأديب الفاضل أبو الحسن علي ابن محمد بن رستم الخرساني المنعوت بالبهاء الشاعر المعروف بابن الساعاتي، بالقاهرة، ودفن بسفح المقطم، وهو ابن ثمان واربعين سنة وسبعة اشهر واثنى عشر يوماً))⁽¹⁸⁾ ويرى الباحث ان رأي ابن خلكان في روايته هو الأقرب إلى الصحة؛ وذلك لأن أغلب المصادر التي ترجمت للشاعر قد اتفقت عليه، فضلاً عن أن مصدر الرواية الذي اعتمد عليه ابن خلكان هو ابن الشاعر نفسه .

ثالثاً: حياته وخصائص شعره: ليس في المصادر التي بين أيدينا ما يكفي لتغطية جميع تفاصيل حياة الشاعر ونشأته . ولكنه على ما جاء في شتى المصادر ولد في دمشق الفيحاء ونشأ بها، ولذلك يسميه ياقوت الحموي الشاعر الدمشقي . وبقي الشاعر في دمشق إلى سن الثانية والثلاثين، إذ انتقل إلى مصر في سنة 585هـ، وقضى فيها بقية عمره. فالشاعر إذا قسم حياته على مرحلتين: الأولى في دمشق حيث قضى فيها طفولته وصباه وصدر شبابه، والثانية في مصر حيث قضى فيها بقية شبابه وصدر كهولته حيث مات في الحادية والخمسين من عمره . ويبدو أنّ الشاعر في المرحلة الأولى من حياته قد عانى من الفقر والعوز والفاقة، وقد كان يشكو ويردد هذه المعاني كثيراً في شعره الذي قاله في هذه المرحلة . ولا سيّما في مدحه للأمراء والوزراء ورجالات الدولة، من ذلك قوله في مدحه صلاح الدين الأيوبي⁽¹⁹⁾:

فيا كاشفَ الجَلَى ويا محييَ الهدى	ويا قاتلَ البلوى ويا كاشفَ الغمّا
رمتني الليالي والليالي مُصيبةٌ	فكم لسهام الحزن في كبدي كلما
واصبحتُ من مالي وصبري معدماً	وفي أيّ باغي ثروة عدلتُ قدما
فيالي من طرفٍ طويلٍ سُهاذهُ	وقلب أبي الا الكآبة والهَمّا
لقد جارت الاقدارُ في بحكمها	ولم تنزل الاقدار تقهرنا حكما

فالشاعر يصرّح هنا بعوزه وفقره وعدمه، ويطلب من ممدوحه العون وكشف الغم عنه. والظاهر أن ابن الساعاتي لم يرحل عن دمشق وهي موطنه ومسقط رأسه إلا ليسعى وراء العيش العزيز، وقد صور لنا ذلك في قوله⁽²⁰⁾:

ما سِرْتُ عن جَلَى ابغي البديل بها	لولا طلابي محلاً في الغلى قَدْفا
طولُ المِقام لأهل الفضل منقصةٌ	والمسلُ لولا النوى ما أدرك الشرفا
لو لم تُجرَّد سيفُ الهند ما رُهبِت	والدُرُّ ما جَلَّ حتى فارق الصَّدفا

ولم يكن الفقر هو السبب الوحيد في معاناة الشاعر، وإنما كان هناك سبب آخر جعله يكثر من التذمر والشكوى، هو أن الناس في دمشق لم يرفعوه إلى المنزلة التي يستحقها، إذ لم يكونوا ينظرون إليه كما كان ينظر إلى نفسه، وهذا سبب آخر دفعه إلى الرحيل عن بلاده، يقول⁽²¹⁾:

فإن بلدٌ لم أعُدْ فيه مكرماً
وما شأنَ فضلي بين أهلي خموله
نحضتُ فاعملتُ الجدليَّةَ البدناً
وقد بلغتُ آياته الإنسانَ والحِناً
فأني كعود الهند هينٌ بدوحه
وقد عبَّقتُ أنفاسه السَّهلَ والحزناً

وعلى الرغم من معاناة ابن الساعى هذه إلا أنه وكما يبدو من خلال قراءة شعره كان من الظرفاء، يحب مجالس اللهو والطرب، ويستمتع بالشرب والسماع والجمال، ظهر كل هذا بوضوح في قصائده الشامية، التي مثلت مرحلة شبابه. كما تذكر المصادر أنه كان بارعاً في اللعب بالشطرنج والنرد، إلى جانب براعته في الفروسية، لذلك قربه الملوك وأحبوه وجالسوه⁽²²⁾ أما المرحلة الثانية من حياة ابن الساعى فقد كانت حياة رضية هائلة، إذ تحقق له فيها ما كان يصبو إليه من ترف وغنى، مما جعله يرضى ويكف عن الشكوى، وقد وصف نفسه فيها وصفاً صادقاً، إذ قال⁽²³⁾:

عاد الزمان كما عهدتُ إلى الرضا
وصفتُ موارد عيشتي وحلت بها
وأزال بالإعتاب عتب العاتبِ
بعد التُّنق سائغاتٍ مشاربي
فركضتُ طُرف اللهو غير مفكّرٍ
وسرحت في روض السرور ركائي
من بعد ما ضاق الشَّامُ وازمعت
مصرّاً نجائبُ ذي فؤادٍ واجبٍ
وتبرَّجتُ غيدُ المني وتأرجحتُ
ريحُ الغنى وافترَّ ثغرُ مآربي

لقد عاش الشاعر حياة مرفهة سعيدة مع عائلته في مكان أقامتهم في المحلة الكبرى بالقرب من القاهرة . ولكن القدر لم يمهله كثيراً إذ سرعان ما نَقَصَ عليه سعادته، وفجعه بأولاده الثلاثة (مودود ومحمود وعيسى) في وقت قريب متلاحق، فبكاهم بكاءً حاراً وندبهم بحزن وحرقة، ورثاهم ببضع قصائد رثاء الوالد الحزين . ولم يعيش بعدهم أكثر من ثماني سنين قضاها مصدوع الفؤاد. ويظهر أن نظرة ابن الساعى إلى الحياة قد تغيرت بعد وفاة أولاده الثلاثة، فبعد أن كان مشغولاً باللهو والتمتع بملذات الدنيا والميل إلى مغرباتها نراه يعزف عن ذلك عزوفاً كبيراً، فيقول في مراثيه لولده محمود⁽²⁴⁾:

ذري بعدها ذكر الغواني فأنني
سلوثُ قدودَ البان في ورق الصبَا
لطمْتُ بكفِّ الجِدِّ سالفَةَ الهزلِ
وعِفْتُ خدودَ الوردِ في ادمعِ الطلِّ
ومن لم يمانع عقله دون نفسه
فليس بذى نفسٍ يُعدُّ ولا عقلٍ

وصار ابن الساعى ينظر إلى الدنيا نظرة واقعية تنم عن خبرة في الحياة، وتوحي بأنه خاض تجربتها ومرَّ بأحداثها وتقلباتها.

اتصاله بالملوك: لم يكن إتصال ابن الساعاتي بالملوك أمراً خاصاً به، إذ تذكر المصادر أن والده كان قد لازم خدمة الملك العادل نور الدين محمود زنكي، وكان له منه الإنعام الكثير، وأن أخاه فخر الدين رضوان ابن الساعاتي الطبيب المعروف قد خدم الملك العادل أبا بكر بن أيوب وتوزر له، وخدم أيضاً الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل بصناعة الطب وتوزر له، وكان ينادمه ويلعب بالعود⁽²⁵⁾. فلا عجب أن رأينا ابن الساعاتي قد اتصل بملوك بني أيوب وأمراءهم ووزرائهم وقادتهم وعظمائهم . فقد مدح عدداً كبيراً منهم . وكانت جلّ مدائحه في الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي وبنيه. ولم يكن إتصال ابن الساعاتي بالملوك مجرد إتصال شاعر بممدوحه، وإنما كان من المقربين إليهم، إذ كان يحضر مجالس لهوهم وينادهمهم ويشاركهم متعتهم. يقول ابن سعيد الأندلسي في ترجمته لابن الساعاتي: ((وبرع في صباه خطأً وشعراً، ولعباً بالشطرنج والترد، وفي الفروسية، فخالطه الكبراء، وهام فيه الجلّة، ونادمه الملوك، وجالسه السلاطين إلى أن قُدِّم على الجميع، وأُبيح له ضرب طبولهم، على عادة أهل المشرق))⁽²⁶⁾. ومما يؤكد ذلك أننا وجدنا في ديوانه الكثير من القصائد والمقطعات التي قيلت في مجالس الملوك والسلاطين. كما وجدنا من الملوك من يقترح عليه اجازة بيت من الشعر أو يطلب منه وصف منظرٍ ما، وغير ذلك. وليست المجالس هي المكان الوحيد الذي كان يلتقي فيه ابن الساعاتي بالملوك، وإنما كان يرحل بصحبة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي في أيام الحرب، أو يتوجه إليه وينشده مدحه في الإنتصارات التي كان يحققها والتي توالى على يديه في كل حين. من ذلك ما رواه سبط ابن الجوزي في أخبار سنة 579هـ، أن صلاح الدين عاد من آمد، ووصل عينتاب، ونزل على تل خالد بعد قتال مرير، فوفد عليه ابن الساعاتي، ومدحه بقصيدة تحدث فيها عن إنتصاراته وحثه على قصد حلب وتنبأ له بفتح القدس في وقت قريب⁽²⁷⁾، ومطلعها قوله⁽²⁸⁾:

ما بعد لُقياك للعافين من أُمِّلِ مَلِكُ الملوِكِ وهذي دولةُ الدُّولِ

ثقافته: يظهر لنا من خلال قراءة شعر ابن الساعاتي أنه يمتلك ثقافة واسعة وعلماً غزيراً في مختلف الفنون والمجالات الدينية واللغوية والأدبية والنقدية والتاريخية،... الخ. وقد افتقرت المصادر التي ترجمت لابن الساعاتي إلى الكلام عن ثقافته وعلمه ومصدرهما. إلا أن ابن سعيد الأندلسي ذكر أنه قرأ في أول أمره على البديع الأسطرابلي⁽²⁹⁾ في آمد . وروى أنه ((كان له ألف دينار، فجعلها في حُبِّ بيت البديع ولم يُعلمه، فاتفق أن دخل سقاء وحمل الحُب فوقع على الذَّهب فأخذه، وتفقد ابن الساعاتي فلم يجده، فجزع وشكا ذلك للبديع: فقال البديع ما اشتهر، لما تضمَّنه من الإحسان وطريف المقصد:

يا من إذا غاب عني لستُ انساه ومن أضافيه وُدِّي حين ألقاه
إن كان مالك ماء الحُبِّ ألقه كما علمت فماء الحُبِّ أفناه

ثم سعى في شأنه حتى خلَّصه من السقاء⁽³⁰⁾. وقد وجدنا أن ابن الساعاتي يعترف بفضل شخص آخر كان قد تلقى على يديه العلم، وهو الشيخ تاج الدين الكندي والذي خصَّه بمدائح كثيرة، كما رثاه في قصيدة طويلة . ويبدو أن الشاعر قد تعلم منه جميع العلوم بما فيها النحو والعروض، فهو الذي أنقذه من الجهل، يقول ابن الساعاتي⁽³¹⁾:

هو المُنْقِذِي من قبضة الجهل بعدما غبِثُ ولا أُدْرِي العَرُوضَ من الضَرْبِ
ومن بعدما أَخْلَقْتُ وفراً ووفرَةً ولا فرق بين الخفضِ عندي والنَّصَبِ
كما تعلم منه قول الشعر ونظمه، يقول ابن الساعاتي⁽³²⁾:

وأوتيتُ دَرَّ القول من بحر علمي وآخرُ يعدوه عن الصَّدَفِ الصَّدْفُ

كثيراً ما كان يظهر ثقافته ومعرفته؛ ليثبت جدارته وتمكنه من العلوم، وذلك عن طريق استعارته لبعض المصطلحات التي تخص علماً من العلوم ويسخرها في شعره، وفي هذا دلالة على درايته ومعرفته وخوضه في ذلك العلم فمثلاً نراه يسخر مصطلحات علوم النحو والصرف والأدب كثيراً في شعره، كقوله⁽³³⁾:

من ربحه الخطي افسح ناظم وحسامه الهندسي ابليغ ناثر
بحر من الانعام يملك سمعه شكر المديد على نداه الوافر
عجزت نحاة الحرب يوم نزاله عن كنه افعال له ومصادر
هو خافض الأعداء ينصب نفسه لبناء علياء ورفع مفاخر

ومثل ذلك مصطلحات العلوم الدينية، كقوله⁽³⁴⁾:

فدع ذكر قسٍ في عكاظ واختها وما سار عنه بين تلك المحافل
فانك ما أسهبت في وصف غيره كمشغل عن فرضه بالنوافل

ونجد عند ابن الساعاتي إلى جانب ثقافته الدينية واللغوية ثقافة نقدية يعتدُّ بها، ولا سيما حين يلجأ إلى الفخر بشاعريته، فيبين مزايا شعره ومحاسنه .

ديوانه: يمتلك ابن الساعاتي نفساً طويلاً وقدرةً كبيرةً على نظم الشعر، فقد عرف عند معاصريه بالشهير المكثّر⁽³⁵⁾، فلا عجب أن رأيناه يخلف لنا تراثاً شعرياً غزيراً. ويذكر ابن خلكان أن له ديوان شعر يدخل في مجلدين، أجاد فيه كل الاجادة، وديواناً آخر لطيفاً سماه ((مقطعات النيل))⁽³⁶⁾. وقد أكد ذلك محقق الديوان، إذ عثر على المخطوطتين اللتين تمثلان المجلدين الذين أشار إليهما ابن خلكان، كما عثر على مخطوطة كانت تحت عنوان (مقطعات النيل). وثمة مسألة مهمة ينبغي الوقوف عليها وهي أن ديوان الشاعر الذي بين أيدينا لا يضم شعره كله، فمعظم قصائده المدحية لم يبق لنا منها سوى غزلها والبيت الذي تخلص فيه من الغزل إلى المدح. إن السبب في ذلك يعود إلى أن الشاعر انتخب من مجموع شعره ديواناً صغيراً سماه (مقطعات النيل) وقد اقتصر هذا الديوان على المقدمات الغزلية التي صدر بها قصائده المدحية، وبمرور الزمن تعرضت مخطوطة المجلد الأول إلى ضياع قسم كبير منها، فاضطر المحقق إلى أن يثبت هذه المقدمات كما هي معتمداً على مخطوطة الديوان الصغير (مقطعات النيل) .

نتائج البحث: لاشك فيها أن شاعرنا العظيم عاش في عصر الّدى مملؤ بالاضطراب والدمار. وبسبب ذلك ازدهرت فنون الأدب وموضوعاته في ذلك العصر ازدهاراً كبيراً، كما ظهرت موضوعات أدبية جديدة تلائم روح العصر الذي كانت تحيّم عليه الحروب الصليبية، إذ كان لهذه الحروب أثر كبير في ظهور ألوان متعددة من الأدب. والشاعر في المرحلة الأولى من حياته قد عانى من الفقر والعوز والفاقة، وقد كان يشكو ويردد هذه المعاني كثيراً في شعره الذي قاله في هذه المرحلة. ولم يكن الفقر هو السبب الوحيد في معاناة الشاعر، وإنما كان هناك سبب آخر جعله يكثر من التذمر والشكوى، هو أن الناس في دمشق لم يرفعوه إلى المنزلة التي يستحقها، إذ لم يكونوا ينظرون إليه كما كان ينظر إلى نفسه، وهذا سبب آخر دفعه إلى الرحيل عن بلاده. أما المرحلة الثانية من حياة ابن الساعاتى فقد كانت حياة رضية هانئة، إذ تحقق له فيها ما كان يصبو إليه من ترف وغنى، مما جعله يرضى ويكف عن الشكوى، وقد وصف نفسه فيها وصفاً صادقاً. ويظهر أن نظرة ابن الساعاتى إلى الحياة قد تغيرت بعد وفاة أولاده الثلاثة، فبعد أن كان مشغولاً باللهو والتمتع بملذات الدنيا والميل إلى مغرياتنا نراه يعزف عن ذلك عزوفاً كبيراً. يظهر لنا من خلال قراءة شعر ابن الساعاتى أنه يمتلك ثقافة واسعة وعلماً غزيراً في مختلف الفنون والمجالات الدينية واللغوية والأدبية والنقدية والتاريخية.

الهوامش:

- (1) محمد جمال الدين سرور: النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق في القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط2، 1959م: 67. وينظر: ابن سناء الملك، حياته وشعره، تحقيق محمد ابراهيم نصر، مراجعة: د. حسين محمد نصار، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1967م: 13.
- (2) الأتابكي، جمال الدين ابو المحاسن يوسف بن تغري بردى: النجوم الزاهرة في اخبار ملوك مصر والقاهرة، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية 1355هـ. 1936م: 6 / 36
- (3) محمد زغلول سلام: الادب في العصر الايوبي، ط مؤسسة الثقافة الجامعية الاسكندرية، ط1، 1959م: 139.
- (4) المصدر نفسه: 51
- (5) محمد زغلول سلام: ضياء الدين بن الاثير وجهوده في النقد، مكتبة نهضة مصر. الفجالة، القاهرة، مطبعة الرسالة: 72.
- (6) السبكي، شيخ الاسلام تاج الدين ابي نصر عبد الوهاب بن تقي الدين: طبقات الشافعية الكبرى، طبع على نفقة ملتزمه احمد عبد الكريم القادري الحسني، المطبعة الحسينية الشهيرة، ط1، د.ت: 326/4.
- (7) أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان (ت681هـ)، وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر- بيروت: 251/3.
- (8) شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي التركي الشهير بسبط بن الجوزي: مرآة الزمان في تاريخ الاعيان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بمحيدر آباد الدكن - الهند، ط1: 473/8.
- (9) محمد زغلول سلام: الأدب في عصر صلاح الدين الأيوبي، مؤسسة الثقافة الجامعية-الاسكندرية، ط1، 1959م: 195.
- (10) المصدر نفسه: 286 وما بعدها. و: ضياء الدين ابن الاثير وجهوده في النقد: 27-28.

- (11) المنذري، زكي الدين ابو محمد عبد العظيم بن عبد القوي: التكملة لوفيات النقلة، حققه وعلق عليه: بشار عواد معروف، مطبعة الآداب - النجف الاشرف، 1391هـ - 1971م، المجلد الثالث: 223. وعيون الانباء في طبقات الاطباء لابن ابي أصيبعة (ت 668هـ)، شرح وتحقيق: د. نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت: 661، والعبر في خبر من غير، للحافظ الذهبي، (ت 748هـ)، تحقيق: د. صلاح الدين المنجد، مطبعة حكومة الكويت، 1386هـ - 1966م: 11/5، والإعلام، لخير الدين الزركلي، ط 3: 150/5، وكتاب الوافي بالوفيات، لصلاح الدين خليل بن ابيك الصفدي، باعتناء رمزي بعلبكي، دار النشر فرانز شتايز بفسبادن، 1404هـ - 1983م: 7/22، وشذرات الذهب في اخبار من ذهب، للمؤرخ الفقيه الاديب، ابي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي (ت 1089هـ)، دار المسيرة - بيروت، ط 1399، 2هـ - 1979م: 13/5 .
- (12) وفيات الاعيان: 395/3 .
- (13) الأندلسي، ابن سعيد ابي الحسن علي بن موسى: الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، تحقيق: ابراهيم الابياري، دار المعارف بمصر: 118، وعيون الانباء في طبقات الاطباء: 661، والتكملة لوفيات النقلة: 223 .
- (14) عيون الانباء في طبقات الاطباء: 661 .
- (15) العبر في خبر من غير: 11/5، والإعلام: 150/5، وتاريخ ابن الفرات، لناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات، حققه وعلق عليه: د. حسن محمد الشماخ، دار الطباعة الحديثة، البصرة - العراق، 1390هـ - 1970م، المجلد الخامس: 1/71-72، وشذرات الذهب: 14 .
- (16) وفيات الاعيان: 396/3 .
- (17) المصدر نفسه .
- (18) التكملة لوفيات النقلة: 223/3 .
- (19) أنيس المقدسي: ديوان ابن الساعاتي، عني بتحقيقه ونشره، المطبعة الاميريكانية - بيروت، 1938م: 387/2 .
- (20) الديوان: 174/2 .
- (21) المصدر نفسه: 214/2 .
- (22) الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة: 118 .
- (23) الديوان: 228/1 .
- (24) المصدر نفسه: 372/2 .
- (25) عيون الانباء في طبقات الاطباء: 661-662 .
- (26) الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة: 118 .
- (27) مرآة الزمان: 375/8 .
- (28) الديوان: 382/2 .
- (29) هو ابو القاسم هبة الله بن يوسف، المنعوت بالبديع الاسطرلابي، الشاعر المشهور، وكان وحيد زمانه في عمل الآلات الفلكية . وكان في شعره ميل الى المجون والفكاهة، ينظر: الاعلام: 58/9.
- (30) الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة: 119 .
- (31) الديوان: 86/2 .
- (32) المصدر نفسه: 84/2 .

(33) المصءر نفسه: 171/1 .

(34) الءىوان: 29/2 .

(35) الغصون الىانة فى مءاسن شعراء المائة السابعة: 118 .

(36) وفيات الاعيان: 396-395/3 .



This work is licensed under a [Creative Commons Attribution 4.0 International License](https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).